١- اللغة العربية أساس نهضة أمتنا ووحدتها[١]

للدكتور عبدالكريم خليفة

رئيس المَجْمَع

تحتل الدراسات اللغوية مكانة متميزة في الوقت الحاضر، في مؤسسات البحث العلمي في الأمم المتقدمة؛ فهي دعامة أساسية في توثيق الصلات وتوطيد دعائم التفاهم بين الأفراد والجامعات في مجال تكوين الأمة. وقد استطاعت هذه الدراسات أن تبين الصلة الحيوية بين اللغة، من حيث هي لغة، وبين أفكار الناس وأحاسيسهم وأعمالهم. وبعبارة أخرى استطاعت أن تبين أن اللغة ليست أداة للتعبير فقط، ولكنها على صلة وطيدة بالحياة الفكرية والعاطفية والاجتماعية لهذه الشعوب، أفراداً وجماعات. وبالتالي فإن لها آثاراً عميقة في السلوك الإنساني بمختلف أشكاله وأنواعه[٢].

فاللغة أمّ التفكير، وما كان للمعرفة أن تأتي إلى حيز الوجود من دون اللغة، وهي في الوقت نفسه على صلة وثيقة بالحياة العاطفية للإنسان، بأحاسيسه وانفعالاته؛ فالإنسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء معين أو فكرة محددة فقط، بل يستعملها للتعبير عن نفسه. ولذا فمن الواجب أن لا نأخذ بعين الاعتبار الصورة التي تصاغ عليها الأفكار فحسب، بل من الواجب أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي توجد بين هذه الأفكار وبين حساسية المتكلم. وهذا يعني، بطبيعة الحال، الجانب العاطفي الذي تمثله لغة هذا الفرد، وبالتالي لغة الجماعة أو لغة الأمة، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كلا العنصرين: الفكري والعاطفي، لا ينفكان عن الاختلاط في كل لغة. وإذا استثنينا اللغات

---

(١) محاضرة ألقيت بكلية الآداب في الجامعة الأردنية بتاريخ ١٩٨٤/٤/٣.

(٢) انظر: اللغة في المجتمع، ص٢٦.

الاصطلاحية، واللغة العلمية منها بوجه خاص- تلك التي تعد خارج الحياة بطبيعتها- أمكننا أن نقول إن التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقاً من لون عاطفي[1]. وقد ذهب بعض علماء اللغة في الكشف عن دور اللغة في المجتمع، إلى القول: إن وظيفة الكلمات إنما كانت التأثير في أفكار الآخرين، لا أن تقوم بنقل الأفكار نقلاً مجرداً؛ وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن الكثير من المسائل الظاهرة في طبيعة التفكير ليست في الحقيقة أكثر من مسائل لغوية... وإن المنطق وما وراء الطبيعة، بل حتى الرياضيات كلها في جوهرها، إنما هي بنية اجتماعية ذات طبيعة لغوية في أساسها، وإن دراسة اللغة لظاهرة غالبة في كثير من حقول الفكر... وهكذا يتضح الآن شيئاً فشيئاً أننا، إذا أردنا أن نفهم الفكر والنتاج الفكري، فالواجب أن ندرس اللغة، وإذا أردنا أن ندرس اللغة، فعلينا أن ندرس عملها في المجتمع[2]. وبعبارة أخرى فإن طبيعة اللغة لا تفهم إلا من خلال المجتمع الذي تُمارس فيه اللغة وظائفها.

ألا نرى أن الطرق الخاصة بالتفكير إنما تشيع في المجتمع بوساطة الاتصال... وتظل اللغة الوسيلة الرئيسية للاتصال، ومن ثم التأثير في الإدراك بنحو تذكُّر الماضي عند الفرد والجماعة ووعيهما بالحاضر، وتوقُّعِهما وتنبؤِهما بالمستقبل. وقد استطاعت الابحاث اللغوية أن تقرر أن الفرد يكتسب من اللغة طرق التفكير الشائعة في المجتمع الذي نما فيه، وأن اكتساب اللغة اكتساب بالضرورة لطرق التفكير. ولا شك أن هذه النتائج العلمية تطرح مفاهيم ومبادئ معينة على مؤسساتنا التعليمية التربوية، ولا سيما فيما يتعلق بالكتب المدرسية، ووضع المناهج السليمة التي ترتكز على أن كل معلم هو معلم لغة، وأن كل كتاب مدرسي هو كتاب لغة... إن هذه العلاقات العضوية بين اللغة وبين الحياة الإنسانية في جميع مجالاتها الفكرية والعاطفية والاجتماعية، لتدعم الرأي الذي

---

(١) انظر: اللغة ج. فندريس، ترجمة القصاص ورفيقه، ص١٨٢- ٢٠٢.

(٢) انظر: اللغة في المجتمع، ص٢٩٤.

يقول أن العالم الآن يعيش في غمرة "ثورة لغوية" وأن التقدم العلمي والتقني يزداد بتسارع كبير، ويبشّر بأن الإنسان ربما يقف على أعتاب فجر جديد من الحضارة الإنسانية. وقد أحدث هذا كلُّه تقدماً هائلاً في طرق الاتصال الفردية والجماهيرية، ولا سيما في مجال الهاتف، واللاسلكي، والطيران، والإذاعة المرئية والمسموعة، والسينما، والأقمار الصناعية، والنزول على القمر، ورحلات الاستكشاف إلى الكواكب، فضلاً عن التقدم الهائل في تقنيات الطباعة ودور النشر والصحافة... إلخ.

وكان لهذا التقدم العلمي التقني دور كبير في إحداث تغيُّرات كبيرة في الحياة الاجتماعية لبني الإنسان، ولا سيما ذلك التطور الذي أصاب تقنيات الاتصال اللغوي. وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين اللغويين: "إننا لا نزال في بدء ما لا بد أن يكون تغيُّرات كبيرة في وظائف اللغة بالنسبة إلى البشر. فنحن نشهد الآن، لأول مرة في التاريخ، إمكان القضاء على الأمية في العالم بأسره، وإمكان استماع الناس جميعاً في اللحظة نفسها إلى الصوت نفسه، أو قراءتهم الكلمات نفسها، كما نشهد منافسة الكلمة المسموعة للكلمة المقروءة"(١).

ونحن في الوقت الحاضر، نعيش في خضم هذا السِّباق العلمي والتقني الذي يشمل جميع أنواع المعرفة، وبين مختلف الشعوب وعلمائهم من خلال لغاتهم القومية التي لا يتمّ الإبداع الفكري إلا بها، أتساءل: أين تقع لغتنا العربية الفصحى– ولا لغة لنا غيرها– وأين يقع علماؤنا في هذا الموكب الإنساني للحضارة الحديثة!!! وأجدني غير راغب في الإجابة عن هذا التساؤل. وعلى كل فإن هذه الرغبة أو عدمها لا تُغيّر في الأمر شيئاً. أليست اللغة مرآة الأمة، ترى من خلالها ذاتها!! أليست اللغة، كما أشرنا سابقاً، الظاهرة الإنسانية التي تتجسّد فيها الحياة الفكرية والعاطفية والاجتماعية لهذه الشعوب أو لتلك الأمة؟... فماذا عسانا نقول وأمتنا العربية الآن، بل الإسلامية، في محنة التمزق والتشتت والتشرذم، تخوض

---

(١) انظر: السعران، ص٣–٤.

صراعاً دامياً مريراً وحزيناً؟ أقول مريراً، لأن الدماء تسيل فيه من كل جانب؛ وأقول حزيناً، لأن معظم الدماء تسيل بين أبناء الأمة الواحدة والشعب الواحد، بل الجماعة الواحدة ومن هم في خندق واحد، وعلى مقربة من العدو اليهودي ومرأى منه.

إن واقع الحال ونواميس الأشياء تقضي بأن تكون اللغة العربية الفصحى، تبعاً لذلك كله، في محنة توازي محنة هذه الأمة. وإنها لكذلك.

وقد يقف الباحثون اللغويون من خارج هذه الأمة، ومن أعداء اللغة العربية، من حاقدين وموتورين في داخلها وبين صفوفها، أقول قد يقف هؤلاء حيارى أمام هذه الظاهرة التي تتميز بها اللغة العربية الفصحى، التي صمدت شامخة حيّة، أمام نوائب الدهر وزعازعه عبر القرون، ولم يجر عليها ما جرى على اللغات العامة التي ظهرت في التاريخ ثم تحلّلت إلى لغات كثيرة. ولا شك أن هؤلاء الباحثين قد نظروا إلى اللغة الفصحى من جانب واحد، وربما من الجانب الذي يستهويهم في حياة اللغة، من حيث ميلها نحو التقسيم إلى لغات ولهجات؛ ويستدلون على ذلك بأنه ما ظهرت لغة عامة إلا تقسمت في لغات كثيرة. والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم، ولا سيما القديمة منها. وقد فاتهم أن هنالك أيضاً ميلاً آخر في حياة اللغة، يتعارض مع الميل نحو التقسيم إلى لغات ولهجات، وهو الميل نحو الوحدة المتزايدة الاتساع. ونحن إذا نظرنا إلى هذين الميلين المتعارضين في حياة كل لغة من اللغات، نجد أنّ كلّاً منهما ناجم عن فعل أحداث تؤثر في الجماعات. ويرى بعض اللغويين أن الاتجاه نحو التقسيم أقوى من الاتجاه نحو التوحد، وأنهم يطلقون عليه عملية التطور الطبيعية للغة. والأدلة على ذلك كثيرة، فقد انقسمت اللغة اللاتينية، مثلاً، إلى لغات عدة هي: الفرنسية، والبرتغالية، والإسبانية، والرومانية، والإيطالية الحديثة... وكذلك انقسمت اللغة الجرمانية إلى اللغات الإنجليزية، والألمانية، والفلامنكية، وغيرها... وقل مثل ذلك

في التطورات التي أصابت كل لغة من هذه اللغات عبر مسيرتها حتى الوقت الحاضر...

ويرى لغويون آخرون أن هنالك قوى لا يجوز التغافل عنها، تعمل في الاتجاه نحو الوحدة، وأن هذه القوى الموحّدة كانت في العصور التاريخية أقوى في حقيقة الأمر من القوى المقسّمة؛ وأنها لكذلك في الوقت الحاضر على وجه الخصوص، وستكون كذلك يقيناً في المستقبل. وحجتهم في ذلك أنه، على الرغم من أن عدد اللغات الآن أكثر منه في بعض العصور الماضية، إلا أن عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة، في عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاماً لم يُعْرَف من قبل، هو في معظم الحالات أكثر أضعافاً مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة[1].

وقد أشار الإمام أبو محمد بن حزم إلى العوامل التي تؤثر في اللغة نحو التقسيم والاندثار، فقال: "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل، بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليها في مساكنهم، أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم.. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيود علومهم. وهذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة"[2].

ونحن إذا نظرنا إلى اللغة العربية، نظرة موضوعية وبصورة علمية، نجد أنها لغة من هذه اللغات النامية، يصدق عليها ما يصدق على جميع اللغات، من قوانين الحياة ونواميس الأشياء. وإن دراسة علمية للأحداث الكبيرة التي أثرت في حياة هذه اللغة، تؤدي بنا بالضرورة إلى إقامة حدّ فاصل بين الفترة التي عاشتها هذه اللغة بأصولها التي تضرب بعيداً في أعماق التاريخ حتى نزول القرآن الكريم

---

(١) انظر: السعران، ص١٧٠- ١٧١.

(٢) الأحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣١.

"بلسان عربي مبين"، وبين حياة هذه اللغة الفصحى المزدهرة النامية والموحّدة، منذ أن شرّفها الله سبحانه وتعالى بالتنزيل العزيز وإلى الأبد. وفي هذا الصدد يقول ابن الجزري: "وقد خصّ الله تعالى هذه الأمة في كتابهم هذا المنزل على نبيهم ﷺ، بما لم يكن لأمة من الأمم في كتبها المنزلة. فإنه تعالى تكفّل بحفظه دون سائر الكتب، ولم يكل حفظه إلينا، قال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"... لأن الله تعالى تحدّى بسورة منه أفصح العرب لساناً وأعظمهم عناداً وعتواً وإنكاراً، فلم يقدروا على أن يأتوا بآية من مثله، ثم لم يزل يتلى آناء الليل من نيّف وثمانمئة سنة، مع كثرة الملحدين وأعداء الدين، ولم يستطع أحد منهم معارضته في شيء"[1].

أما الفترة الأولى من حياة اللغة العربية، أي قبل نزول القرآن الكريم بها وحياً على سيدنا محمد، ﷺ، فإن الباحثين في تاريخ اللغة العربية الفصحى وفقهها يكادون أن يجمعوا على أننا لا نعلم شيئاً عن طفولة هذه اللغة... وأن أقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي... ويرجع تاريخ أقدم هذه الآثار الأدبية إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير... وهذه النصوص الأدبية تمثّل اللغة العربية الفصحى في عنفوان (اكتمال قوّتها وعظمتها)، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في التطور والارتقاء... وبعد أن تغلّبت لهجة من لهجاتها، هي لهجة قريش، على أخواتها واستأثرت بميادين الأدب، شعرِها وخطابتِها ونثرِها في مختلف القبائل العربية[2].

وحول هذا الموضوع يقول الأستاذ علي عبدالواحد وافي: "غير أنه من المسلّم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق، أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول الساميّة القديمة في مفرداتها وقواعدها، وأنه لا تكاد تعدلها في ذلك أية لغة ساميّة أخرى. ويرجع السبب إلى نشأتها في أقدم موطن

---

(١) ابن الجزري، ج١ ص٤-٥.

(٢) انظر فقه اللغة، ص١٠٧-١٠٨.

للساميين، وبقائها في منطقة مستقلة منعزلة، فقلّتْ بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى، ولم تُذَلَّل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم[1].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الظروف الأخيرة حول نشأة اللغة العربية ومواطنها، أمكننا أن نقول: إذا لم تكن هذه العربية هي اللغة الساميّة الأم، فلا شك أنها الوريثة الرئيسة لها، من حيث أصول بنيتها ومفرداتُها. وربما يرجّح رأينا هذا ما ذهب إليه الأمام أبو محمد بن حزم الأندلسي قبل نحو تسعة قرون ونصف، إذ يقول: "إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية– هي لغة مُضر وربيعة لا لغة حِمْيرَ – لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جَرْشٌ[2]، كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما. ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط، وهي على ليلة واحدة من قرطبة، كاد أن يقول: إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة؛ وهكذا في كثير من البلاد؛ فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله[3].

فهذا النص يطرح أمامنا قضايا عدّة، ليس فقط فيما يتعلق بالفترة الأولى من حياة اللغة العربية، وعلاقتها بالجذور الساميّة، ولكنه يطرح أمامنا قضايا مهمة تتعلق بمسيرة اللغة العربية المنطوقة، بعد أن أصبحت لغة عامة لهذه الشعوب التي تمتد من أواسط آسيا شرقاً، الى أوربا واسبانيا الاسلامية غرباً. وهنا لا بد من أن نفرّق منذ البداية بين اللغة المنطوقة، لغة الكلام، وما يطرأ عليها من نغم ولهجات، وبين اللغة المكتوبة، لغة القرآن، اللغة العربية الفصحى التي نزل بها الذكر الحكيم.

فاذا تركنا جانباً اللغة العربية في فترة حياتها الأولى، وصراع اللهجات بين القبائل العربية في العصر الجاهلي، فان الأحداث العظيمة التي أثّرت

---

(١) المصدر نفسه، ص١٦.

(٢) الجَرْش: حك الشيء الخشن بمثله ودلكه (انظر: لسان العرب مادة جرش)، ويريد احتكاك اللغات بعضها ببعض.

(٣) الأحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣.

في حياة العربية الفصحى ونقلتها نَقْلَة تاريخية حاسمة، من الميل نحو التقسيم والتفتّت الى الميل نحو التوحّد والاتساع، تنحصر على وجه اليقين في نزول القرآن الكريم «بلسان عربي مبين»، وَحْياً على النبي، ﷺ، وما صاحب ذلك، منذ اللحظات الأولى، من الحرص على كتابته وحفظه وجمعه، ثم ما حدث فيما بعد من توحيده في مصحف واحد وفي قراءات مضبوطة محددة، وما نشأ بعد ذلك من علوم ودراسات كانت تهدف الى الامعان في فهم آياته وسوره، وتفسيرها وتوضيحها للأجيال. . .

حقاً، إنّ اللغة العربية تتميز بعناصر أساسية في بنيتها الصرفية والنحوية، تجعلها طيّعة قادرة على استيعاب ما يجِدُّ من المعرفة الانسانية، وهي في ذلك، شأنها شأن اللغات الأخرى، تتمايز فيما بينها بما لها من جذور تاريخية، وتجارب خصبة في المشاركة في بناء الحضارة واستيعاب حصيلة المعرفة الانسانية. وهذا يعني أنه ليست هنالك لغة أفضل من لغة بحدّ ذاتها، حيث أنها متصلة بالانسان، كما بيّنا سابقاً، اتصالاً جوهرياً، وحيث أن البشر يتساوون في قيمتهم الانسانية، فلغاتهم متساوية أيضاً. ويطيب لي في هذا المجال أن أورد رأي ابن حزم اذ يقول: «وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات؛ وهذا لا معنى له، لأن وجوه الفضل معروفة، وانما هي بعمل او اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة. وقد قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم». وقال تعالى: «فانما يسرناه بلسانك لعلّهم يتذكرون». فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب الا ليَفْهَمَ ذلك قومُهُ (عليه السلام)، لا لغير ذلك»[1]. وبعد أن يفرق الامام ابو محمد بن حزم، بين اللغة العربية، من حيث هي لغة لا فضل لها على لغات الأمم الأخرى، وبين ما شرّفها الله- سبحانه

(١) الاحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣٢.

وتعالى - به بأن جعلها لغة القرآن، «ليَفْهَم ذلك قومُه عليه السلام»، نجده يسخر من مقولة جالينوس سخرية شديدة فيقول: «وقد غلط في ذلك جالينوس فقال: ان لغة اليونانيين أفضلُ اللغات؛ لأن سائر اللغات انما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع. قال علي (أي ابن حزم): وهذا جهل شديد، لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكره جالينوس ولا فرق»[1].

وتناول ابن حزم أيضاً مقولة بعض من كان يزعم بأفضلية اللغة العربية، فيقول: «وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات، لأنه بها نزل كلام الله تعالى. قال علي: وهذا لا معنى له، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً الا بلسان قومه. وقال تعالى: «وانْ من أمة الا خلا فيها نذير». وقال تعالى: «وانه لفي زبر الأولين». فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه. وقد أنزل التوراة والانجيل والزبور، وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية، وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية. فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً[2].

وبعد هذه المناقشة العميقة، يسخر ابن حزم باليهود سخرية شديدة فيقول: «وقد أدى هذا الوسواس العامي باليهود الى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال، لا يفهمون الا العبرانية، فلا يكتبون عليهم غيرها. وفي هذا من السخف ما ترى، وعالم الخفيات وما في الضمائر، عالم بكل لسان ومعانيه، عزّ وجل. لا اله الا هو وهو حسبنا ونعم الوكيل»[3].

---

(١) الأحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣٢.

(٢) المصدر عينه.

(٣) المصدر عينه.

واذا كان ابن حزم يناقش هذا الموضوع من خلال نصوص الآيات الكريمة وجوهر العقيدة الاسلامية السمحة، التي تساوى بين ابناء البشر، وتجعلهم على مختلف أجناسهم وألوانهم على قدم المساواة، وأن لا تفاوت بينهم الا فيما ينجزونه من الأعمال الصالحة: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، أقول: اذا كان الأمام صاحب كتاب «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل» يناقش هذا الموضوع من هذه الناحية، فانه من ناحية أخرى يذهب بعيداً في فهم طبيعة اللغة الأنسانية، اذ يقول: «وحروف الهجاء واحدة، لا تفاضل بينها ولا قُبح ولا حُسن في بعضها دون بعض. وهي تلك بأعيانها في كل لغة، فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة»[1] وهو يقصد بذلك دعاوى جالينوس ومن سار على مذهبه.

ونحن في هذا البحث يهمنا أن نتوقف عند نزول القرآن الكريم بلسانٍ عربي مبين، نبراس هداية للناس كافة، كي يخرجهم من الظلمات الى النور. فكان حدثاً عظيماً في تاريخ الانسانية، وكان كذلك حدثاً عظيماً في حياة اللغة العربية الفصحى، لسان قريش؛ فقد أصبحت هذه اللغة خالدة بخلود هذا التنزيل العزيز، وأصبحت نتيجة الأحداث العظيمة التي أحاطت بكتابته وجمعه والحرص على تلاوته كما أنزله سبحانه وتعالى على قلب نبيّه، ﷺ، أقول أصبحت طبيعة هذه اللغة تتّجه الى التوحُّد والى الاتّساع، مناقضة في ذلك اتجاه التقسيم والتشتّت الذي كانت سائرة في مداره بأصولها الساميّة.

ومن هنا فان كتابة القرآن الكريم وحفظه زمن الرسول، ﷺ، وكذلك جمعه وتلاوته وقراءاته، وجميع العلوم التي نشأت حوله، أصبحت بالضرورة تحتلّ مكانة جوهرية في حياة اللغة العربية الفصحى منذ ذلك الوقت، وعبر

(١) الأحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣٢.

القرون والأحداث التي مرت بها أمتنا العربية والاسلامية. وكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور بالدرجة الأولى، لا على حفظ المصاحف والكتب. وهذا، على حد تعبير ابن الجزري، «أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة...». اذ يقول «ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمة ثقات، تجردوا لتصحيحه، وبذلوا أنفسهم في اتقانه، وتلقّوه من النبي، ﷺ حرفاً حرفاً، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا، ولا اثباتاً ولا حذفاً، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم. وكان منهم من حفظه كلّه، ومنهم من حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه. كل ذلك في زمن النبي ﷺ.

وقد ذكر الامام ابو عبيد القاسم بن سلام في أول كتابه في القراءات مَنْ نُقل عنهم شيء من وجوه القراءة من الصحابة وغيرهم، فذكر من الصحابة: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليّاً، وطلحة، وسعدا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالماً، وأبا هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبدالله، ومعاوية، وابن الزبير، وعبدالله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سَلَمة؛ وهؤلاء كلّهم من المهاجرين. وذكر من الأنصار: أُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبا الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبا زيد، ومجمع بن جارية، وأنس بن مالك، رضي عنهم أجمعين[1].

وهكذا فقد أُخِذ النص القرآني حفظا في الصدور، وكتابة على الموادّ التي كانوا يكتبون عليها في ذلك الوقت، منذ بدء نزوله منجّما على رسول الله، ﷺ. ولما توفي النبي، عليه السلام، وقام بالأمر ابو بكر الصديق، رضي الله عنه، أشير عليه بجمع القرآن في مصحف واحد خشية أن يذهب

(١) ابن الجزري، ج١ ص٦.

بذهاب الصحابة، وذلك بعد أن قتل نحو خمسمئة من الصحابة، رضوان الله عليهم جميعاً، في قتالهم أهلَ الردَّة.

وتنقل الينا الروايات أن أبا بكر تردّد في بداية الأمر، من حيث أن النبي، ﷺ، لم يأمر في ذلك بشيء. وما لبث أن اجمع رأيه ورأي الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، على جمع القرآن. فأمر ابو بكر زيد بن ثابت بتتبّع القرآن وجمعه. فتمّ جمعه في صحف احتفظ بها ابو بكر، رضي الله تعالى عنه، وبعد وفاته انتقلت عند عمر، رضي الله عنه، حتى توفّي، ثم عند حفصة، رضي الله عنها.

وتُحدِّثنا الروايات انه في نحو ثلاثين من الهجرة، في خلافة عثمان، رضي الله عنه، حضر حذيفة بن اليمان، فاتح ارمينية وآذربيجان، فرأى الناس يختلفون في القرآن. ويقول أحدهم للآخر: قراءتي أصحّ من قراءتك. فأفزعه ذلك، وقدم على عثمان، وقال: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها ثم نردّها اليك. فأرسلتها اليه. فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف. وقال: اذا اختلفتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش. فانما نزل بلسانهم. فكتب منها عدة مصاحف، فوجّه بمصحف الى البصرة، ومصحف الى الكوفة، ومصحف الى الشام، وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفا، الذي يقال له: الامام ووجّه بمصحف الى مكة، وبمصحف الى اليمين، وبمصحف الى البحرين. وأجتمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف، وتُرك ما خالفها من زيادة ونقص، وابدال كلمة بأخرى، مما كان مأذونا فيه، تَوْسِعَةً عليهم ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن[1].

(١) ابن الجزري، ج١ ص٧.

فكان لهذا العمل العظيم الذي قام به الخليفة الشهيد عثمان، رضي الله تعالى عنه، آثار خالدة في حياة أمتنا، ليس فقط في مجال العقيدة والفكر، ولكن أيضا في مجال اللغة. فقد كان هذا التدبير الملهم يعني توحيد الأمة أيضا على لغة واحدة، وجعل لغة القرآن المادة الأساسية في بنية اللغة الفصحى. وكان للقراءات القرآنية وللقراء دور أساسي في انتشار هذه اللغة وضبطها، فان اكتساب اللغة يكون باكتساب القدرة على التلفظ بها على وجهها الصحيح. وقد حرص القراء على تلاوة القرآن وتجويده، وذلك باخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، فكانوا شيوخ القرآن وفي الوقت نفسه شيوخ العربية.

وأصبح تعلم العربية ودراستها ضرورة أساسية من أجل فهم القرآن الكريم، وتلاوته تلاوة صحيحة كما نطق به الرسول، ﷺ، وهو أفصح قريش.

وكانت الكتابة التي كُتبت بها المصاحف جميعها خالية من النقط والشكل، مما جعل الاعتماد الأساسي على الحفظ لا على مجرد الخط. وهكذا فقد تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل اليهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان، ولتصديهم للقراءة نسبت اليهم[٢].

وقرأ كل مِصْرٍ بما في مصحفهم، وتلقّوا ما فيه من الصحابة الذين تلقّوه من في رسول الله، ﷺ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقّوه عن النبي، ﷺ. وهذا الامام ابن حزم يشير الى دقة نقل النص القرآني فيقول: «ان نقل المسلمين لكلّ ما ذكرنا ينقسم أقساما ستة: أولها شيء ينقله أهل المشرق

(٢) ابن الجزرى، ج١ ص٨.

والمغرب عن امثالهم جيلا جيلا، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معـانـد للمشاهدة، وهو القرآن المكتوب في المصاحف في شرق الأرض وغربها، لا يشكّون ولا يختلفون في أن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب أتى به، وأخبر أن الله عز وجل أوحى به اليه، وأن من اتّبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن اولئك حتى بلغ الينا»[1] وان هذا النهج الذي اشار اليه ابن حزم مستمر عبر القرون، تحرص عليه الأمة جيلا بعد جيل، حتى الوقت الحاضر والى ان يرث الله الأرض ومن عليهـا، لا يختلف فيه أيضـا مؤمن ولا كافر منصف. . . وان الفـرق بين المسلم وغير المسلم هو في مجـال العقيدة الربانية فقط، بأنه وحي من الله سبحانه وتعالى.

وقد بدأت العناية باللغة العربية وتعلُّمها منذ نزول أول آية من القرآن الكريم على رسول الله، ﷺ، فقد نزلت بالحثّ على القراءة والكتابة وطلب العلم: اذ يقول سبحانه وتعالى: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الانسان ما لم يعلم». فبدأت حلقات الدراسة وحلقات التعلم حول هذه الآيات الكريمة، وكانت العنـاية بالقـراءة والكتـابـة تسير جنبا الى جنب مع الاخذ مشافهة والحفظ بالصدور، وفُرض على اسرى بدر ان يعلّموا القراءة والكتابة عدداً من ابناء المسلمين، افتـداء لأنفسهم. وهـذا يشير الى بدء اقدم حملة في التاريخ واعظمها شأنا لازالة الامية بين عامة الناس، لا فرق بين ذكر وانثى، ولا بين غني وفقير، ولا بين اسود وابيض، واصفر واحمر. . . الخ.

فهذه العقيدة السماوية التي ساوت بين جميع بني البشر، بمختلف طبقاتهم ومختلف ألسنتهم ومختلف ألوانهم، هي الحدث الأزلي الذي انتقل

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢ ص٨١.

باللغـة العـربية، من لغـةٍ مثل بقية اللغات، تصدق عليها قوانين التقسيم والتشتت، الى لغـة تتّجه الى الأبد نحو التوحّد والتوسّع. وأصبحت اللغة العـربية، لغـة مضر على حدّ قول عمر، رضي الله عنه، اللغة التي ترتبط بالاسلام من حيث الجوهر فكراً وعاطفة ومادة. وأصبح تعلمها فريضة على كل مسلم ومسلمة، من حيث كونها اللغة التي لا يُفهم القرآن والحديث من دونها. فأصبحت اللغة العربية متصلة اتصالا عضويا بطلب المعرفة في كل زمـان ومكان، من المهد الى اللحد، وفي جميع الأقطار مهما كان بعدها المكاني. وضرب لذلك مثلا فقيل: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

سارت اللغة العربية الفصحى، لغة مضر، ولغة القرآن الكريم، في مسارين متوازيين: احدهما مجال التوسع والنمو والازدهار، مستوعبة حصيلة ما وصل اليه الفكر الانساني في حقل المعرفة، والمسار الآخر يتمثل في بقائها موحّدة ثابتة الأصول، من حيث بنيتها الصرفية، وقواعدها النحوية، والنطق بها، كما أُخذت عن اهلها الأولين الذين يُحتَجُّ بهم.

وقد أعتُبِر الخروج على هذه اللغة، في لفظها او نحوها او صرفها، ضلالاً منذ عهد الرسول، ﷺ؛ فقد رووا أن النبي، ﷺ، سمع رجلا يلـحن في كلامه، فقال: «أرشدوا أخاكم فانه قد ضلّ»[1] وان هذه الرواية وغيرها مما يشابهها لها دلالة كبيرة في هذا الانعطاف الجديد في حياة اللغة العربية؛ وأية دلالة اكبر من أن يعتبر الرسول، ﷺ، الخروج على لغة القرآن ضلالا!!

وسارت اللغة العربية في هذا الاتجاه القويم من التوحُّد الذي رسمه لها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأصبح جزءا من عقيدتها، لا

---

(١) انظر: الخصائص، ج٢ ص٨.

تفرط فيه ولا تتهاون به، عُلَماء وقراء واصحاب سلطة. فقد رووا، مثلا، أن أحد ولاة عمر، رضي الله تعالى عنه، كتب اليه كتابا لحن فيه، فكتب اليه عمر: ان قنّع كاتبك سوطاً»[1]. وان دلّت هذه الرواية على شيء، فإنما تدلّ على السياسة التي لا تهاون فيها نحو الحرص على سلامة هذه اللغة، والوقوف بحزم أمام اي اتجاه للتسيُّب والتشتّت.

وروِيَ أيضاً عن حديث علي، رضي الله تعالى عنه، مع الأعرابي الذي أقرأه المقرىء «ان الله بريءٌ من المشركين ورسوله». (بكسر اللام في رسوله)، حتى قال الأعرابي: برئت من رسول الله، فأنكر ذلك عليّ، عليه السلام، ورسم لأبي الأسود مِنْ عَمَلِ النحو ما رسمه... فكان ما يروى من أغلاط الناس من ذاك الى أن شاع، واستمر فساد هذا الشأن، مشهورا ظاهرا[2].

ومهما كان من شأن هذه الرواية، فانها تُحدِّد وقتاً مبكراً لتقعيد قواعد اللغة ووضع ضوابطها النحوية والصرفية. وسار هذا العلم في مدارج النمو والارتقاء، حيث بلغ ذروته في وقت قصير على يدي الخليل بن احمد وتلميذه سيبويه.

وكما كان التأكيد على كتابة اللغة رسماً وصرفاً ونحواً، كان التأكيد ايضاً على النطق بها نطقاً صحيحاً، ولذا كان للقراء دور أساسي في تعليم القرآن، وانتشار اللغة العربية الفصحى. «فقد كثر القراء وتفرّقوا في البلاد وانتشروا، وخَلَفَهُم أُمَمٌ بعد أمم، عُرفت طبقاتهم، واختلفت صفاتهم، فكان منهم

---

(١) الخصائص، ج٢ ص٨.
(٢) المصدر عينه.

المتقن للتلاوة، المشهور بالرواية والدراية، وفيهم المقتصر على وصف من هذه الأوصاف وكثر بينهم الاختلاف، وقلّ الضبط، واتّسع الخرق، وكاد الباطل يلتبس بالحق فقام جهابذةُ علماءِ الأمة وصناديدُ الأئمة، فبالغوا بالاجتهاد، وبيّنوا الحقّ المراد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا بين المشهور والشاذ»[1].

وقد استطاع هؤلاء الباحثون أن يَخْلَصوا الى وضع أصول للتمييز بين هذه القراءات وهذه الأصول التي عدّلوا عليها هي: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصحّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردُّها ولا يحل انكارها... ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة»[2].

وكان للتلاوة وأصولها دور أساسي في ضبط اللغة ضبطا دقيقا من حيث النطق، بأن يأخذ كل حرف حظّهُ من الصوت اللائق به من الاظهار او الاخفاء او الجهر أو الهمس، ومدّ الصوت أو قصره وهكذا، وهو ما يسمى في اصطلاح علم النغم «بتجويد الحروف». ولا شك أن للقراءات القرآنية قيمة متميزة في مجال اللغة العربية، اذ تحوي ثروة لغوية ضخمة، وتسجّل كثيرا من ظواهر اللهجات.

وقد ذهب جميع الأئمة من المسلمين، ومنهم الشافعي، رضي الله عنهم جميعاً، الى اشتراط اتقان اللغة العربية من أجل فهم القرآن الكريم وشريعة الاسلام. وكثيرا ما كانت الخلافات المذهبية تنشأ عن اختلاف في

(١) ابن الجزري، ج١ ص٩.

(٢) المصدر نفسه.

فهم اللغة. وهذا ابن جنّي، العالم اللغوي المشهور، يقول: «ان أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى اليها، فانما استهواه، واستخفّ حلمه، ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها. . . »[1].

وكان من الطبيعي أن يستقطب القرآن الدارسين من حوله، وأن تنشأ العلوم المختلفة، من لغوية ونحوية وبلاغية وتاريخية وجغرافية وفلكية وغيرها، في خدمة النص القرآني. ودخلت العربية أيضاً، باعتبارها لغة الدولة، جميع ميادين المعرفة والحياة فأصبحت اللغة الأولى في العالم اذ ذاك في الآداب والعلوم والفنون، واستمرت عدّة قرون، وهي في هذه المسيرة التاريخية التي تتصف بالاتساع العظيم، ملتزمة أشد الالتزام بهويتها الأساسية في التوحّد والحفاظ على جوهر كيانها، من حيث هي لغة القرآن الكريم، بأصول بنيتها الأساسية نحواً وصرفاً ونطقاً، ولكنها في الوقت نفسه حية نامية طيعة من حيث الأساليب والمفردات، واستيعاب كل ما يجدُّ من معارف انسانية.

والأمثلة كثيرة في هذا الباب. فهذا الجاحظ يتحدث عن البيان الذي يحتاجه من يريد مقارعة أرباب النِحَل وزعماء المِلَل، فيقول: «وأن البيان يحتاج الى تمييز وسياسة، والى ترتيب ورياضة، والى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف واقامة الوزن، وأن حاجة المنطق الى الحلاوة والطلاوة كحاجته الى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من اكثر ما تُستمال به القلوب، وتُثنى له الأعناق، وتُزيّن به المعاني»[2].

---

(١) الخصائص، ج٣ ص٢٤٥

(٢) البيان والتبين، ج١ ص١٤

ويحدّثنا ابو عثمان الجاحظ حديثا مفصلا، في باب البيان من كتابه هذا، عن أهمية اللغة وارتباطها بالمعنى، وانه كلما كانت الدلالة اوضحَ وأفصحَ، وكانت الاشارة أبين وأنور، كان ذلك أنفع وانجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو اليه ويحثّ عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم[1].

وسارت العربية في ميادين العلم والمعرفة عبر القرون، وفي خضم الاتجاهات السياسية والعقائدية المختلفة... وظهرت التيارات المتصارعة... فهذا، مثلا، ابن جنّي يرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ واغفالها المعاني، فيقول: «وذلك أن العرب كما تُعْنى بألفاظها، فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ احكامها، بالشعر تارة وبالخطب أخرى، والاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها، وأفخم قَدْراً في نفوسها»[2]. ويواصل ابن جني حديثه في العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأن العرب، على حد تعبيره، انما تُحلّي ألفاظها وتدبّجُها وتوشيها وتزخرفها، عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلا بها الى ادراك مطالبها، وقد قال رسول الله، ﷺ، ان من الشعر لحِكمه وانّ من البيان لسحرا»[3].

وسارت العربية الفصحى، نامية حية، في بناء حضارة عربية اسلامية أصيلة، وأدت الدراسات اللغوية والنحوية الى استكشاف امكانات هذه اللغة ومقوماتها الذاتية، التي تجعل منها لغة مرنة قادرة على استيعاب كل ما هو

(١) انظر البيان والتبين ج١ ص٧٥.

(٢) الخصائص، ج١ ص٢١٥.

(٣) الخصائص، ج١ ص٢٢٠.

جديد، خالدة بخلود هذا الذكر الحكيم. وإن خصائصها الذاتية في الاشتقاق والنحت والابدال والنقل والمجاز والاقتراض والتعريب، تجعل منها لغة قادرة على استيعاب كل ما هو جديد. وبذلك فتحت امامها ابواب واسعة في مجالات من المعاني لا تُحَدّ. ومثال ذلك (القياس). ويطيب لي في هذا الصدد ان اقف عند قول ابي عثمان: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرُك اسم كل فاعل ولا مفعول، وانما سمعت البعض فَقِسْتَ عليه غيره»[1].

ولا يلبث ابن جني حتى يدخل الى صميم خصائص التعريب بمعناه الاصطلاحي، الذي يفتح الباب واسعا امام هذه العربية النامية الحية، القادرة على استيعاب كل ما هو جديد، فيورد رأي أبي علي الفارسي حيث يقول: «اذا قلت: طاب الخُشْكُنانُ»، فهذا من كلام العرب، لأنك باعرابك ايّاه قد أحلته الى كلام العرب»[2]... وفي موضع آخر يستشهد برأي ابي علي الفارسي في موضوع الاشتقاق من الأعجمي النكرة، حيث يقول: ... ويؤكد ذلك أن العرب اشتقّت من الأعجمي النكرة، كما تشتق من أصول كلامها... يقال: دَرْهَمَتْ الخُبّازي، أي صارت كالدراهم، فاشتق من الدرهم، وهو اسم أعجمي، وحكى ابو زيد: رجل مُدَرْهَم...[3].

وكان الى جانب هذه المسيرة التاريخية للغة الفصحى، نامية حية محافظة على جوهر بنيتها من حيث هي لغة القرآن الكريم، لغة الفكر والأدب والعلم... أقول الى جانب هذا كلّه، كانت اللغة المحكية التي يستخدمها عامة الناس في حياتهم اليومية، وفي أقطار هذه الدولة المترامية الأطراف،

---

(١) الخصائص، ج١ ص٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر الخصائص، ج١ ص٣٥٨.

يتنـازعها عاملان أساسيان: فهنالك لغة القرآن الكريم، لغة الأدب والفكر والعلم، تنزع بها الى التوحّد حول مركز لغوي واحد، في مفرداته وتراكيبه ومجـالُه الكتاتيب ودور العلم ودواوين الدولة في الغالب والمساجد؛ وأما العـامـل الآخـر، وهو المناقض للتوحد، فينزع الى التقسيم والتشتّت، وهو ناموس من نواميس الطبيعة اللغوية. وهذا ما يطلق عليه «اللغة العامية» في الوقت الحاضر...

وكانت هذه العامية وما زالت مختلفة في كل قطر، بل في كل مدينة، ولكنهـا في جميع الأحوال وعبر التاريخ حتى الوقت الحاضر، لغة متحوّلة متغيرة، بعـداً وقـرباً من اللغة الفصحى، لغة القرآن الكريم، لغة الآداب والعلوم والفنون... وهي في ذلك كلّه صدى للأوضاع السياسية والاجتماعية والثقـافية والاقتصادية التي تمرّ بها أمتنا العربية، في مختلف أقطارها وعبر تاريخها حتى الوقت الحاضر.

وان نظرة عامـة الى «بخـلاء» الجـاحظ، والى «الشـدّة بعد الفرج» للتنوخي، والى قصص ألف ليلة وليلة، والى خَرْجة الموشّح الأندلسي، والى الـزجل، تؤكد لنا وجود هذه اللغة المحكية في مختلف الأقطار. وقد رأينا سابقا ابن حزم الأندلسي يحدثنا عن الجَرْش في لغة الأندلسي اذا رام نغمة أهل القيروان، وعن القيرواني اذا رام نغمة الأندلسي وعن الخراساني اذا رام نغمتهما

ويحدثنا عن الاختلاف في هذه النغمة في البلد الواحد عندما يقول: «ونحن نجـد من سمع لغة أهل فحص البلوط، وهي على ليلة واحدة من قرطبة، كاد أن يقول: انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة. وهكذا في كثير من البلاد؛ فانه بمجاورة أهل البلدة لأمّة أخرى تتبدل لغتها تبدّلاً لا يخفى على

من تأمله. ويضع أمامنا أبو محمد نصّاً مهماً، حيث ينقل الينا بعض ألفاظ العامة اذ ذاك فيقول: «ونحن نجد العامة قد بَدَّلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق. فتجدهم يقولون في العِنَب: آلعِنِبْ، وفي السوط أسطوط، وفي ثلاثة دنانير: ثلثدا. واذا تعرّب البربري فأراد أن يقول: الشجرة، قال السجرة. واذا تعرّب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء، فيقول: مُهَمَّدا، اذا أراد أن يقول: محمدا. ومثل هذا كثير[1].

ونحن أمام هذه العامية في اللغة المحكية، وعبر تقلبات التاريخ السياسي والثقافي في هذه الأقطار، لا نجدها في جميع الظروف تخرج عن مدار اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم.

ونجد أنفسنا أمام الصورة عينها، مع اختلاف في اللون حيث تبدو قاتمة، بعد نحو أربعة قرون، اذ يحدثنا ابن خلدون عن انحسار العربية في كثير من أقطار المشرق الاسلامي فيقول: «ولمّا تملّك العجم من الدَّيلم والسّلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتةُ والبربرُ بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية، فَسَدَ اللسان العربي لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفِظَهُ من عناية المسلمين بالكتاب والسنّة اللذين بهما حفظ الدين، وصار ذلك مُرجّحا لبقاء اللغة المضريّة. فلما ملك التتر والمغول بالمشرق، ولم يكونوا على دين الاسلام، ذهب ذلك المرجّح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية، بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر، وبلاد الشمال، وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام، الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من علوم العرب، وحفظ

(١) الاحكام في أصول الأحكام، ج١ ص٣٠.

كلامهم لمن يسّره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المُضرية بمصر والشام والاندلس والمغرب، لبقاء الدين طالبا لها، فانخفضت بعض الشيء. واما في ممالك العراق وما وراءه، فلم يبق له أثر ولا عين، حتى أن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المجالس»[1].

فاذا كان الأمام ابو محمد يحدثنا في أوائل القرن الخامس الهجري عن اللغة المحكية في تلك الأمصار، فان ابن خلدون يحدثنا في أوائل القرن التاسع الهجري، اي بعد اربعة قرون، حديثا شاملا تختلط فيه اللغة المكتوبة مع اللغة المحكية. وقد ركز ابن خلدون في رسمه لهذه الخريطة اللغوية لدار الاسلام على عاملين أساسيين: عامل العقيدة الاسلامية من ناحية، وعامل السياسة من ناحية أخرى، كما اقتصر على البلاد التي دخلها الاسلام، وشعوبُها تتكلم لغاتِ غيرَ اللغة العربية؛ ولذا نراه يستثني الجزيرة العربية، مهد العربية والاسلام، من حديثه.

وبعد سقوط الأندلس، توالت النكبات على هذه الأمة وعلى لغتها العربية الفصحى، وصارت السلطة في معظم بلاد المشرق وجزء من شمال افريقيا، بيد العجم من الأتراك العثمانيين، وأصبحت اللغة التركية لغة الدولة في جميع مناشطها، وانحسرت اللغة العربية، وفَسَد اللسان العربي، بل كاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنّة...

وما لبثت موجة الاستعمار الأوروبي أن بدأت تهب عاتيةً، تثير حملاتها الصليبية من جديد، مستخدمة الوسائل إياها من قوى عسكرية ضخمة، وحملاتٍ للتبشير، لاخضاع هذه الشعوب ونهب ثرواتها وأوطانها.

---

(١) المقدمة، ص٦٧٦.

وكـان يصاحب هذه الحملات الاستعمارية الشرسة حملاتٌ مماثلة للقضاء على اللغة العربية، في الجزائر، وفي تونس، وفي المغرب، وفي ليبيا، ثم في بلاد المشـرق العـربي . . . وفي كلّ مرة نجـد اللغـة العربية الفصحى تتراجع، لكي تنزوي في حلقات حول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، داخل حصونها التي لا تقهر.

ومنـذ أوائـل القـرن التـاسـع عشر الميلادي، وعندما بدأت جيوش الاستعمـار الأوروبي تجتـاح بلادنـا في الشمال الافريقي، ثم في مصر، وتتسلل الى بلادنـا وتجتاحها في المشرق العربي، ونحن نرى أن الحملة المـوجهـة الى اللغـة العـربية الفصحى تسير باتجـاهين متوازيين: فاتجاه لمحاربة الاسلام دون هوادة وبمختلف الوسائل، واتجاه يقوم بالتمكين للغة الأجنبية ونشرها في بعض المناطق، وبالدعوة الى العامية، الى جانب سياسة نشر اللغة الأجنبية في مناطق اخرى. . . ونحن لا نريد هنا أن نؤرخ للدعوة الى اللغة العامية في المشرق العربي وفي مغربه[1] والآثار التي تركتها منذ الغـزو الاستعمـاري في شمالي افريقيا، وانتهاء بالغزو الأوربي الصهيوني للمشرق العربي، ولكننا نود أن نقول: إن وجود العامية بجانب الفصحى، على ما بينهما من اختلاف، ظاهرةٌ طبيعية في كل اللغات. وليس وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية بالأمر الشاذ. وقد ظهر لنا مما عرضناه سابقا أن هذه الظاهرة كانت تلازم الفصحى منذ أقدم العصور، وبكل تأكيد منذ أن أمر، رضـي الله عنه، عامله بأن يقنِّع كاتبهُ سوطا عقوبة على لحن اقترفه. . .

---

(١) في هذا الموضوع يراجع كتاب «تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر» تأليف الدكتورة نفوسه زكريا سعيد، الاسكندرية، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

ومنذ عشرينيات هذا القرن، بدأت اللغة العربية الفصحى توسع دائرة حلقاتها الى رحاب أوسع، واستطاعت أن تكسب ميادين علمية مهمة في بلاد الشام. . وتابعت مسيرتها المظفرة بعد الحرب العالمية الثانية، تساير مسيرة الشعوب العربية في تحرّرها، ومحاربتها للاستعمار بألوانه وأشكاله المختلفة؛ وهي في كل يوم تكسب ميادين جديدة في جميع مجالات المعرفة وفي المؤسسات العلمية. . . وان انتشار التعليم لكي يعم جميع فئات الأمة في المدن والريف والبادية بلغة عربية سليمة، هو السبيل الوحيد من أجل تضييق الفجوة التي تفصل بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة. وإن اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، تنزع بطبيعتها، كما رأينا، منذ أربعة عشر قرناً الى التوحّد والاتساع. فهي اللغة التي تربط بين أبناء أمتنا بالروابط الروحية والعاطفية والفكرية، وهي وحدها التي تصلنا بهذا التراث الضخم عبر القرون.

وان لغة هذا شأنُها وهذا تاريخُها، لا بد سائرة لكي تحتل مكانتها الطبيعية، سيدةً في بيتها وبين أهلها، بعد أن غصبتها اللغات الأجنبية هذه السيادة، وما زالت مع الاسف تدافعها في كثير من الأقطار العربية. واننا على ثقة بأن اللغة العربية، وليس لنا لغة سوى لغةالقرآن، ستكون في المستقبل - ونرجو أن يكون قريبا - لغةَ التعليم في جميع مراحله وفي جميع مجالاته، بأن تكون لغة التعليم الجامعي والبحث العلمي. ولا سبيل لأمتنا لكي تلحق بركب الحضارة، وتشارك مشاركة أصيلة في بناء هذه الحضارة، الا من خلال لغتها، فهي الأساس الروحي والفكري الذي تقوم عليه وحدة هذه الأمة، فأمتنا العربية هي لغتنا العربية الفصحى، ولغتنا العربية الفصحى هي امتنا، وبالتالي فهي أساس نهضة امتنا ووحدتها.

المصـــادر والمراجـــع

١ - ابراهيم الأبياري، تاريخ القرآن، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢ - ابراهيم أنيس، في اللهجات العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣ - ابراهيم علي أبو الخشب، القرآن الكريم، القاهرة.

٤ - ابن الجزرى أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، ج١-٢، مصر.

٥ - ابن خلدون عبدالرحمن بن خلدون المغربي، المقدمة، بيروت، ١٩٦١م.

٦ - ابن مطرف الكناني، القرطين أوكتابي شكل القرآن وغريبه لابن قتيبة، ج١-٢، مصر ١٣٥٥هـ.

٧ - أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، بنغازي، ١٣٩٤هـ.

٨ - أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج١-٣، بيروت.

٩ - أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، الاحكام في اصول الاحكام، ج١-٨، القاهرة.

١٠ - أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١-٥، بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١١ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، ج١-١٣.

١٢ - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبين، ج١-٤، تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

١٣ ـ ج. قندريس، اللغة (تعريب: عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص) القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م.
١٤ ـ حسن ظاظا، كلام العرب، من قضايا اللغة العربية، الاسكندرية، ١٩٧١م.
١٥ ـ السيوطي عبدالرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وانواعها، ج١ـ٢، شرح محمد أبو الفضل ابراهيم ورفيقه، مصر.
١٦ ـ علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، القاهرة.
١٧ ـ محمد عزة دروزة، القرآن المجيد، صيدا.
١٨ ـ محمد السّعْران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، القاهرة، ١٩٦٣.
١٩ ـ م.م. لويس، اللغة في المجتمع (ترجمة، تمام حسان وابراهيم أنيس)، مصر، ١٩٥٩م.
٢٠ ـ نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر، الاسكندرية، ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.